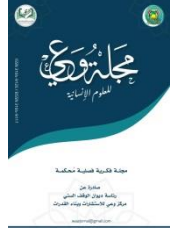




مجلة وعي للعلوم الإنسانية
ISSN: 3104-9125
E-ISSN:3104-9117

مجلة وعي للعلوم الإنسانية

العدد الثالث / ٢٠٢٦م، الصفحة: ١٤٣٢-١٤٤٨



الشيعة في جبل عامل بين التحولات السياسية والمشروع الفقهي: الشهيد الأول أنموذجاً

The Shiites in Jabal Amil between political transformations and the jurisprudential project: The First Martyr as a model

م. عمار ياسر عبد ناصر العامري

المديرية العامة لتربية المثني/ العراق

alsamawacom@gmail.com

الكلمات

المفتاحية

الشهيد الأول،
جبل عامل، بنت
جيبيل، الشيعة،
الشراسة.

الملخص

إن دراسة أوضاع الشيعة في منطقة جبل عامل بوصفها أحد المراكز التاريخية البارزة للتشيع، ولا سيما منذ القرون الوسطى، خلال حقبة القرن الثاني عشر الميلادي، وما تلاه من تحولات فكرية وسياسية، إذ تسلط الدراسة الضوء على انتقال مركز الثقل الفقهي إلى جبل عامل، بعد تراجع مدارس شيعية أخرى في العراق لا سيما النجف والحلة وكربلاء، ودور هذه المنطقة في الحفاظ على الهوية المذهبية ومواجهة التحديات السياسية، كما تبرز الدراسة مكانة الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي ودوره المحوري في تطوير الفكر السياسي الشيعي، وتنظيم المجتمع العاملي في ظل الحكم المملوكي الشركسي، وما رافق ذلك من صراعات داخلية بين الأقطاب الشيعية الإسلامية والإقطاعية وخارجية، كما تعالج الدراسة معركة الشهداء سنة ١٣٨٣م، بوصفها محطة مفصلية في تاريخ جبل عامل، لما كان لها من آثار دينية وسياسية واجتماعية عميقة، وتختتم بدراسة تداعيات مقتل الشهيد الأول وانعكاساتها على واقع الشيعة في جبل عامل، سواء على مستوى البنية الاجتماعية أو المسار الفكري والسياسي للطائفة الشيعية.

KEY WORD Abstract

First Martyr,
Jabal Amel,
Bint Jbeil,
Shiites,
Circassians

This study examines the situation of the Shi'a in the Jabal Amil region, a prominent historical center of Shi'ism, particularly since the Middle Ages, specifically during the 12th century CE, and the subsequent intellectual and political transformations. It highlights the shift of the center of Shi'a jurisprudence to Jabal Amil after the decline of other Shi'a schools in Iraq, especially Najaf, Hilla, and Karbala. The study also explores the region's role in preserving its religious identity and confronting political challenges. Furthermore, it emphasizes the stature of the First Martyr, Muhammad ibn Bakki al-Amili, and his pivotal role in developing Shi'a political thought and organizing the Amil community under Circassian Mamluk rule. This period is marked by internal conflicts between Shi'a Islamic and feudal factions, as well as external conflicts. The study also addresses the Battle of the Martyrs in 383 CE as a pivotal event in the history of Jabal Amil, given its profound religious and political repercussions. Finally, it concludes by examining the consequences of the First Martyr's assassination and its impact on the Shi'a community in Jabal Amil, both in terms of its social structure and its intellectual and political trajectory.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم .. وصلى الله تعالى على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً
كثيراً.

تُعد منطقة جبل عامل في جنوب لبنان إحدى المناطق التاريخية المرتبطة بالتشيع منذ القرون الوسطى، ومركزاً مهماً لنمو المدارس الفكرية الشيعية، ومصدر تأثير ديني وسياسي واسع على بلاد الشام والعالم الإسلامي، إذ شهدت المنطقة تحولات كبيرة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين، إذ ارتبطت بفترات حكم عدة دول شيعية كالبويهيين في العراق وإيران، والحمدانيين في سوريا، والفاطميين في مصر وشمال أفريقيا، وصولاً إلى ظهور دولة الأدارسة في شمال غرب أفريقيا، والزيدية في شمال إيران واليمن.

وعلى الرغم من سيطرة هذه الدول الشيعية، كانت الصراعات السياسية متواصلة بينها، وكانت بلاد الشام مسرحاً لتقلبات نفوذ متعددة، تراوحت بين ظهور وتراجع النفوذ الشيعي، إلى جانب تحديات

داخلية مثل الصراعات مع المماليك والحركات المعارضة في جبل عامل، في هذا السياق التاريخي؛ برز "الشهيد الأول" محمد بن مكي العاملي، كشخصية محورية في توحيد الطائفة الشيعية، وتطوير الفكر السياسي الفقهي فيها، ومواجهة التحديات الاجتماعية والدينية، وصولاً إلى معركة النبطية "القوفا" الشهيرة سنة ١٣٨٣م، والمعروفة بـ"معركة الشهداء".

وفي ضوء ما تقدم، تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أوضاع الشيعة في منطقة جبل عامل خلال القرن الرابع عشر ميلادي، ورصد انتقال مركز الثقل الفقهي الشيعي إليها، مع بيان أثر الشهيد محمد بن مكي العاملي في هذه التحولات، والكشف عن أبرز الجهود التي بذلت لتطوير الفكر السياسي الشيعي في تلك البيئة، وقد برز هذا الدور بوضوح، ولا سيما بعد تراجع المدارس الشيعية الأخرى، مقابل تصاعد مكانة مدرسة جبل عامل التي اضطلعت بدور محوري في مواجهة التحديات السياسية، سواء تلك الناجمة عن التجاذبات والصراعات على النفوذ داخل الطائفة الشيعية نفسها، أم في سياق التصدي لسلطة المماليك الشراكسة الحاكمة آنذاك، وتعتمد الدراسة في ذلك على منهج التاريخي التحليلي، بالاستناد إلى المصادر التراثية والدراسات الحديثة، سعياً لتقديم قراءة علمية متوازنة لهذه المرحلة المفصلية من تاريخ التشيع في جبل عامل.

وانطلاقاً من هذا الإطار، توزعت الدراسة على أربعة مطالب رئيسية: تناول الأول: منها أوضاع الشيعة في منطقة جبل عامل، بينما خصص المطلب الثاني: لبحث دور الشهيد الأول في تطور الفكر السياسي الشيعي، أما المطلب الثالث: فقد عالج معركة الشهداء سنة ١٣٨٣م في جبل عامل، في حين خصص المطلب الرابع: لبيان تداعيات مقتل الشهيد الأول ومعركة الشهداء على واقع الشيعة في جبل عامل.

المطلب الأول: أوضاع الشيعة في منطقة جبل عامل

تُعد منطقة جبل عامل إحدى المناطق التاريخية المرتبطة بالتشيع عبر مساهما الطويل، كما تمثل واحدة من أبرز المدارس الفكرية الشيعية، ازدهر التشيع في المنطقة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين، وهي الفترة التي شهدت سيطرة الدول الشيعية على معظم أرجاء العالم الإسلامي، وبدءاً بحكم البويهيين للعراق وإيران، مروراً بالحمدانيين في سوريا، والفاطميين في مصر وشمال أفريقيا، وانتهاءً بحكم الأدارسة في شمال غرب أفريقيا، والزيدية في شمال إيران واليمن^(١).

وعلى الرغم من الانتماء المذهبي المشترك لهذا الدول، كانت الصراعات السياسية بين الدول الشيعية مستحكمة، كما يظهر في سقوط الدولة الحمدانية على يد دولة شيعية أخرى هي دولة بني عقيل، التي حكمت الموصل من سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م حتى ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م^(٢).

أما في سوريا، فقد استمرت دويلات الأمراء الشيعة في الحكم لفترة طويلة، فقعب سقوط الحمدانيين في حلب، حل محلهم أمراء المردياسيين، الذين بقوا في السلطة حتى سقوط حكمهم على يد بني عقيل سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، وانتهت سيطرة آل عقيل على حلب سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، حين دخلت المنطقة تحت النفوذ السلجوقي السني، أما في مدينة طرابلس جنوب سوريا، فقد حكمها أمراء شيعة آخرون، هم بنو عمار حتى سقوطهم على يد الصليبيين سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م^(٣).

وتشير مصادر الرحلات والجولات التاريخية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي إلى انتشار واسع للفكر الشيعي في بلاد الشام، إذ نكر الرحالة الإيراني ناصر خسرو، الذي زار الشام

١. محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص ٣٠٣.

٢. جودت القزويني، تاريخ المؤسسة الدينية، ص ١٥٩.

٣. المصدر نفسه، ص ١٦٠.

سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م، أن: "جميع سكان طرابلس، وأغلب قاطني مدينة صور كانوا من الشيعة"^(١)، كما أشار الرحالة ابن جبير بعد زيارته دمشق سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م إلى أن: "الشيعة في دمشق ومناطق أخرى لهم مظاهر دينية غريبة، وهم أكثر عدداً من السنة، وقد نشروا عقائدهم في تلك المناطق"^(٢).

استمر التشيع في حلب بشكل رسمي حتى مجيء نور الدين زنكي^(٣)، الذي اتخذ سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م المذهب الحنفي مذهباً رسمياً، بينما ساهم سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م في انحسار المد الشيعي، وعودة المذاهب السنية إلى المشهد السياسي^(٤).

أما خلال الحكم المملوكي في بلاد الشام، فقد كانت الأوضاع السياسي معقدة ومليئة بالصراعات بين الأطراف المتنافسة على النفوذ، والتي كانت خاضعة بدورها للحكم المركزي في مصر، وامتاز هذا الحكم بالعنف واعتماد وسائل مختلفة لقمع الخصوم، وقد واجه الشيعة خلال هذا الفترة مأزقين كبيرين^(٥):

١. ناصر خسرو، سير الملوك، ص ١٦٠.

٢. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٧٢.

٣. نور الدين زنكي: هو نور الدين محمود بن زنكي (ت ٥٦٧هـ/ ١١٧٣م)، من الأتراك في حلب، مؤسس الدولة الزنكية، اشتهر في مقاومة الصليبيين، كان داعماً للعلماء والمشايخ، وله أثر في توطيد سلطة المسلمين السنة في سوريا. للمزيد يُراجع: إبراهيم الزبيق، أبو شامة مؤرخ دمشق، ص ٣٤٥.

٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٧٨.

٥. جودت القزويني، المصدر السابق، ص ١٦٤.

المأزق الأول: مذابح كسروان التي نفذتها قوات المماليك البحرية سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٦م، التي أدت إلى تغيير التركيبيبة الاجتماعية للشيعية، وإخلاء نظام استيطانهم التقليدي، وتفريق شملهم بين المدن والقرى التي لم يألّفوا السكن فيها من قبل.

المأزق الثاني: مقتل زعيم الشيعة الشيخ محمد بن مكي المعروف بـ"الشهيد الأول" سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م على يد الممالك الشراكسة، بعد توليهم مقاليد السلطة في مصر وبلاد الشام.

ومع ذلك، شهدت الفترة بين هذين الحديتين مراحل من التفاهم والاتصال بين الشيعة والمماليك الأتراك، والتي وفرت أجواء من الحرية الدينية لنمو الفكر الشيعي، وسط ظروف مليئة بالمتغيرات والصراعات السياسية المتعددة.

المطلب الثاني: دور الشهيد الأول في تطور الفكر السياسي الشيعي

هو أبو عبدالله شمس الدين محمد بن مكي بن محمد الشامي العاملي الجزيني، الملقب بـ"الشهيد الأول"، ولد في جزين إحدى قرى جبل عامل في لبنان سنة (٧٣٤-٧٨٦هـ/١٣٣٣-١٣٨٤م)، ويعد من كبار فقهاء الشيعة في القرن الثامن الهجري، وهو مؤلف الكتاب الفقهي الشهير "اللمعة الدمشقية"^(١).

١ . اللمعة الدمشقية: هو كتاب فقهي مختصر في فقه الإمامية، ألفه العلامة زين الدين بن علي العاملي (ت ٩٦٥هـ)، عالج فيه أبواب الفقه العملي بأسلوب موجز ودقيق، ويعد إلى اليوم متناً دراسياً معتمداً في المدارس الدينية (الحوزات). للمزيد يُراجع: الحر العاملي، أمل الأمل، ص ١١٦.

هاجر الشهيد الأول إلى المراكز العلمية الدينية في الحلة وكربلاء وبغداد في العراق، وارتاد مجالس الفقهاء والأساتذة فيها، إذ أفادهم كما أفاد منه، ويكفي في ذلك قول أستاذه "فخر المحققين"^(١): "لقد أفدت من تلميذي محمد بن مكي أكثر مما استفاد مني"^(٢)، ولم يحده انتماءه المذهبي إلى مدرسة أهل البيت عن الاطلاع علي ثقافة أهل السنة، فقد ناقشهم وحاججهم في أجواء عملية وفكرية واسعة، وزار مختلف مراكز الحركة العقلية في البلاد الإسلامية، بما في ذلك مكة والمدينة والشام والقدس^(٣).

سعى الشهيد الأول من خلال علاقاته العلمية ومكانته الرفيعة إلى المقام بمهام إصلاحية وتوجيهية في منطقة جبل عامل، وعلى الرغم من تعرضه لمضايقات مستمرة لم يثنه ذلك عن إحداث نهضة عملية وفكرية، فأسس في جبل عامل أول مدرسة فقهية تعرف بـ"مدرسة جزين"، التي تخرج منها عدد كبير من الفقهاء والمفكرين الإسلاميين^(٤).

شهدت منطقة جبل عامل نشاطاً كبيراً من خلال مشروع الشهيد الأول، الذي هدف إلى توحيد الطائفة الشيعية، وقد شكلت أطروحاته تطوراً نوعياً في الفكر السياسي الشيعي، ويمكن تخيص أبرز عناصر مشروعه في التالي^(٥):

١. إنشاء ونشر المدارس في مناطق لبنان المختلفة.
٢. تعيين الوكلاء (نواب) له في مساجد والقرى.

١ . فخر المحققين: هو محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت ٧٧١هـ)، فقيه وأصولي إمامي بارز، يعد من أعلام مدرسة الحلة العلمية، كان له دور مهم في تدريس الفقه والأصول، برز بذكائه وقوة استدلاله، ومن أشهر آثاره "الفوائد في شرح مشكلات القواعد". للمزيد يُراجع: ابن داود الحلي، الرجال، ص ٢٠٨.

٢ . محمد أمين نجف، علماء في رضوان الله، ص ١٣٠.

٣ . محسن الأمين، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٢.

٤ . آغا الطهراني، طبقات اعلام الشيعة، ج ٥، ص ٢٠٥.

٥ . زين الدين العاملي، الدر المنثور، ص ٢٢.

٣. فرض جباية الزكاة والخمس على أتباعه.

٤. تنظيم قواعد المؤسسة الدينية، وتفعيل دورها الإداري والمالي.

يلاحظ أن الشهيد الأول عند شرحه لكتاب "اللمعة الدمشقية"، رأى وجوب دفع الاخماس إلى "نائب الإمام"، أي الفقيه الجامع لشروط المرجعية الدينية العليا لدى الشيعة، ويبدو أن الشهيد الأول هو أول من استعمل هذه المصطلحات بين فقهاء الشيعة^(١)، وقد أوضح السيد محمد باقر الصدر: "إنه أبسط سلطة الفقيه من خلل تعيين الوكلاء، وجباية الموارد المالية"^(٢)، يمثل أول تطبيق عملي تاريخي لإنشاء كيان مترابط في تاريخ الزعامة الشيعية، ومن المحتمل إن هذا التحرك كان أحد أسباب اغتياله، إذ شرع بالعمل في منطقة جبل عامل بعيداً عن رقابة السلطان في دمشق، وعين له نواباً على مناطق مثل طرابلس وغيرها^(٣).

وعقب تولي شمس الدين علي بن المؤيد الحكم سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م في دولة السربدارية^(٤)، سعى إلى توطيد دعائم حكمه، فاستقطب رجال الدين كأحد المسوغات الأساسية لاستقرار الدولة وازدهارها، وتواصل ابن المؤيد مع الشهيد الأول، ودعاه عبر مرسلات متعددة إلى القدوم إلى إيران، إذ كانت مدرسة جبل عامل قد تفوقت في شهرتها وأهميتها على المدارس الدينية في العراق وإيران آنذاك، غير أن الشهيد الأول اعتر عن ذلك لظروفه السياسية القاهرة في الشام، فكان كتابة "اللمعة الدمشقية" بمثابة استجابة لهذه الدعوات؛ ليكون دستوراً للدولة، ويحقق غرض ابن المؤيد دون مغادرة موطنه^(٥).

١. الشهيد الثاني، الروضة البهية، ج٢، ص٧٩.

٢. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢٨٤.

٣. محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ص١٢٢.

٤. فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة، ص١٧٠.

٥. محسن الأمين، المصدر السابق، ج١٠، ص٦١.

كان الشهيد الأول من دعاة "نظرية النيابة العامة للفقهاء"، وقد وصفه العلامة الطبطبائي بأنه: "أحد خمسة نوابغ من فقهاء الشيعة"^(١)، ويعد بذلك من كبار المجددين؛ بسبب آرائه الجريئة والمتطورة في ولاية الفقيه، وقد بسط ولايته ليس على القضاء وحده، إنما شملت حتى صلاة الجمعة في زمن الغيبة^(٢)، وهو ما يمثل نقلة نوعية في الفقيه الشيعي، إذ سمح له إنتاج وتطوير أحكام فقهية سلطانية، ومنح الفقيه صلاحية النظرية للولاية السياسية^(٣).

أصبح الشهيد الأول رقماً مهماً في معادلة سلطة المماليك الأتراك، فلم يستطيع نواب دمشق التعامل معه إلا بما يضمن له ولأتباعه حرية معتدلة مقابل الحفاظ على مصالح الدولة الأمنية، وأضحى جزءاً من تشكيلة السلطة المملوكية التركية، محافظاً على أمنها واستقرارها، أما مقتله فلم يتم على يد المماليك الأتراك الذين كانوا حلفاءه، إنما على يد المماليك الشركاسة الذين أزحوا حلفاءه الأتراك واستولوا على بلاد الشام بعد تسليم الظاهر برقوق زمان السلطة في مصر، في الوقت الذي شهدت فيه سنوات العقد الثامن (٧٩٠هـ / ١٣٧٨م) ازدهاراً للشيعة، وتشكلهم قوة سياسية منافسة لقيادة الشهيد الأول^(٤).

وقد أصقت السلطات المملوكية الشركسية بالشهيد الأول تهمة كونه "عاملاً" أي أحد أصحاب المناصب الرسمية في الدولة المملوكية التركية، ما يوضح أن سلطته على المنطقة كانت بإقرار المماليك الأتراك أنفسهم، وكانت الحركة السياسية الشيعية التي قادها الشهيد الأول أول حركة معارضة للسلطة المملوكية الشركسية في القاهرة، توحد الجزينيون تحت قيادته ضد الحكم الجديد، بينما بقيت آراءهم في جبل عامل والمناطق الساحلية متباينة، ولم تتوحد الطائفة تحت زعامة واحدة، وكان دعم

١. محمد حسين الطبطبائي، الشيعة في الإسلام، ص ١٣٠.

٢. فؤاد إبراهيم، المصدر السابق، ص ١٧٣.

٣. الشهيد الثاني، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٩.

٤. جودت القزويني، المصدر السابق، ص ١٨٩.

المماليك الأتراك أساس مشروعه السياسي، أما معارضة بعض الشيعة، فكانت نتيجة التقلبات السياسية والصراعات بين السلطات التركية الشراكسة، ولم تكن نابعة بالضرورة من سلطته الدينية^(١).

إن تمرد بعض الشيعة في جبل عامل ضد الشهيد الأول يعكس الصراع المستمر بين الزعامات الشيعية غير دينية (الإقطاعية) والفقهاء، والذي لم يظهر إلا بعد انهيار سلطة المماليك الأتراك، حين اتسعت الموجهات المسلحة بين الأطراف الشيعية المختلفة على تقاسم النفوذ في المنطقة^(٢).

المطلب الثالث: معركة الشهداء سنة ١٣٨٣م في جبل عامل

شهد الحكم الملوكي في بلاد الشام سلسلة من الانقلابات والمؤامرات بين الأمراء المماليك، ما مهد الطريق للظاهر برقوق للانتصار لصالح المماليك الشراكسة ضد المماليك الأتراك، وفي الفترة الأولى من حكمه، استمر النزاع بينه وبين الأمراء في بلاد الشام^(٣)، فضلاً عن الاضطرابات الداخلية التي شكلت تهديداً للسلطة المملوكية، بالإضافة إلى خطر خارجي تمثل بتيمورلنك الذي تمكن من السيطرة على العراق، وكان يخطط للتوجه نحو بلاد الشام، لا سيما بعد تحالفه مع نظيره علي بن المؤيد^(٤).

شهد القرن الهجري ازهار الحركات الصوفية، وخاصة في المجال الفكري والثقافي، مما أتاح للمجتمع مستوى من الحرية الدينية والعلمية، مع التسامح في العقيدة والتساهل في أداء الواجبات الدينية، كما برزت نخبة من رجال الفكر الذين طرحوا مسائل دينية وفكرية مهمة للنقاش والبحث، مما

١. جعفر المهاجر، الهجرة العاملة، ص ٧٠.

٢. جودت القزويني، المصدر السابق، ص ١٩٤.

٣. يوسف طباجة، الشهيد الأول، ص ٤٢.

٤. فؤاد إبراهيم، المصدر السابق، ص ١٧١.

أتاح للشهيد الأول محمد بن مكي العاملي التوسع في مشروعه الإصلاحية وتوسيع دائرة ونشاطه في ظل هذه البيئة المواتية نسبياً^(١).

في هذه الفترة، ظهر في بلدة جبل عامل الشيخ محمد الياوشي، أحد أبرز تلامذة الشهيد الأول، الذي ارتد عن المذهب الإمامي وأدعى مذهباً جديداً قريباً من الصوفية، متورطاً بإعمال السحر والشعوذة وادعاء النبوة، وجمع الياوشي حوله انصاراً كثيرين، وسيطر على قرى كاملة في جبل عامل، بخاصة في مناطق الساحل وبالأخص النبطية "الفوقا"، التي آنذاك مراكز إدارية هاماً ضمن ما يُعرف بـ(المملكة الشقيقة)، ما شكل عقبة أمام توسع مشروع الشهيد الأول، إذ جعلها الياوشي مقراً رئيسياً له^(٢).

تعامل الشهيد الأول مع حركة الياوشي وحركة الظاهر بهدوء وإصرار، محاولاً حل النزاع بالطرق السلمية، فأرسل كبار فقهاء للتفاوض مع الياوشي لإقناعه بالحوار، ثم أرسل ولده الشيخ ضياء الدين العاملي مع أربعين من طلبته وجماعة من أهل الحل والعقد، وعند وصولهم قابلهم الياوشي بالقتال في وادي زبدین، وأبدى رفضه للتفاوض قائلاً: "سبحان الله، نحن ما أتيناك للقتال ولا للتشيع في الأفعال"، فرد ضياء الدين: "إني لا أريد أن أرميكم"، فغدر بهم إلا خمسة منهم وهم من أبناء الشيخ شمس الدين محمد بن مكي، الذين عادوا إلى أبيهم ليبلغوه موقف الياوشي^(٣).

١ . يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص ١٨٥.

٢ . يوسف طباجة، المصدر السابق، ص ٤٣.

٣ . يوسف البحراني، المصدر السابق، ص ١٨٧.

بعد ذلك تصدى الشهيد الأول للحركة، وجرت بينهما مواجهة عسكرية في منطقة النبطية "الفوقا"، عرفت بـ"معركة الشهداء" سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م في قرية النبطية جنوب جزيين، وانتصر فيها الشهيد الأول، وقد كانت لهذه المعركة ابعاد متعددة وأبرزها^(١):

١. القضاء على أهل البدع والشعوذة التي هدت أركان الدين.
٢. جمع شمل العاملين، بخاصة في مواجهة الإقطاعيين الذين عارضوا عملية الإصلاح الديني للحفاظ على سلطتهم ونفوذهم.

مع ذلك، لم تؤدِ الهزيمة إلى القضاء التام على هذه الظاهرة، إذ انتقلت زعامة الدعوة يعد مقتل اليالوشي إلى تقي الدين الجبلي (الخيامي)، ومن بعد وفاته إلى يوسف بن يحيى، والذان كان لهما الدور الأكبر في استشهاد الشهيد الأول عبر الوشاية به أمام حاكم دمشق وقضاة بيروت وحلب ودمشق^(٢).

وتأسست نتيجة المعركة سيطرة تيار الشهيد الأول على خصومه المرتدين، وتكبد هؤلاء خسائر بشرية كبيرة، ولم تتوقف المعركة عند حد القضاء على القادة المرتدين، إنما تحولت إلى صراع سياسي أوسع بداية لفصل جديد استهدفت فيه القوى المعارضة القضاء على حركة الشهيد الأول، وتوجهت له اتهامات عدة، أبرزها:

١. كونه جزءاً من النظام المملوكي الرسمي، الذي ظل عدد من أمرائه معارضين للسلطة الجديدة، واتهم بأنه "عامل" على المناطق التي كان ينفذ فيها مشروعه، والتي كانت تحت دعم ورعاية المماليك الأتراك، إذ قام بتعيين نواب وتنظيم القوى الشيعية إدارياً واقتصادياً^(٣).

١. فؤاد إبراهيم، المصدر السابق، ص ١٧٢.

٢. محمد باقر الخوانساري، روضات الجنات، ص ١٥٢.

٣. محمد مهدي الآصفي، مقدمة للمعة الدمشقية، ص ١٣٧.

٢. التحالف مع فرقة النصيرية في مواجهة المماليك الشركاسة، إذ امتد نشاطه بين أوساط النصيرين في طرابلس والمناطق المجاورة ضمن محاولات لاستعادة وجودهم التاريخي المضطهد وربطهم وبالتشيع الإمامي^(١).

المطلب الرابع: تداعيات مقتل الشهيد الأول ومعركة الشهداء في جبل عامل

شكل مقتل محمد مكي العاملي سنة (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) إلى جانب ما سبق ذلك من إحداث معركة الشهداء سنة (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) منعطفاً حاداً في تاريخ الشيعة في منطقة جبل عامل، وألقى بظلاله العميقة على أوضاعهم الدينية والسياسية والاجتماعية لعدة عقود لاحقة، إذ أدت هذه التطورات إلى تفكيك المشروع الإصلاحى الذي كان الشهيد الأول قد أسسه، وإلى انكفاء السياسى المنظم للطائفة الشيعية في المنطقة.

أولاً: على المستوى الدينى والعلمى، أدى استشهاد الشهيد الأول إلى إيجاد فراغ كبير في مقام القيادة الدينية، إذ كان يمثل المرجعية الفقهية "المرجع الأعلى" للمسلمين الشيعة في جبل عامل، ويمثل مشروع واضح لتوحيد الطائفة وتنظيم مؤسساتها، وبغيابه تعرضت المدارس التي أنشأها، ولا سيما مدرسة جزين، إلى حالة من الجمود والتراجع، كما تفرقت تلامذته بين الهجرة إلى مراكز علمية أخرى كالنجف وأصفهان، أو الانكفاء داخل مجتمعاتهم المحلية خشية الملاحقة، وأسهم ذلك في إضعاف الاستقلال العلمى لمدرسة جبل عامل مؤقتاً، قبل أن يستعيد دوره لاحقاً في القرون اللاحقة^(٢).

ثانياً: على المستوى السياسى، مثل استشهاد الشهيد الأول نهاية تجربة شيعية شبه منظمة لممارسة دور سياسى في ظل الدولة المملوكية، إذ اجهضت السلطة المملوكية (الشركسية) أي محاولة لإعادة أحياء مشروعه، وعدت نشاطه دليلاً على خطورة تداخل الزعامة الدينية مع العمل السياسى، ونتيجة لذلك،

١. ابن العماد الحنبلى، المصدر السابق، ج٦، ص٢٨٤.

٢. جعفر السبحانى، الشهيد الأول، ص٩٥.

تراجع حضور الشيعة في المعادلة السياسية في بلاد الشام، وأبعدوا عن أي مواقع تأثير رسمي، كما فرضت عليهم رقابة شديدة حدث من تحركات علمائهم وزعمائهم^(١).

ثالثاً: على المستوى الاجتماعي، أدت هذه الأحداث إلى تعميق الانقسام داخل المجتمع الشيعي العالمي نفسه، إذ كشفت المعركة الشهداء وما تلاها، تداعيات عن وجود صراعات داخلية بين الزعامات الدينية من جهة، والزعامات الإقطاعية والعشائرية من جهة أخرى، وبعد زوال الغطاء السياسي الذي كان يتمتع به الشهيد الأول في ظل المماليك الأتراك، برزت هذه الخلافات إلى العلن، وتحولت في بعض المناطق إلى صدمات مسلحة على النفوذ والزعامة المحلية، الأمر الذي أضعف وحدة المجتمع الشيعي في جبل عامل^(٢).

رابعاً: من الناحية الأمنية، تعرض الشيعة في جبل عامل إلى حملات من التضييق والملاحقات، سواء بشكل مباشر من السلطة المملوكية الشركسية، أو عبر خصومهم المحليين الذين استثمروا مقتل الشهيد الأول لتصفية الحسابات القديمة، وأسهم ذلك في حالة من الخوف وعدم الاستقرار، دفعت كثيراً من الشيعة إلى اعتماد سياسة الحذر والتقية، والابتعاد عن أي نشاط علني ذي طابع سياسي أو مذهبي صدامي^(٣).

وعلى الرغم من قسوة هذا التداعيات، فإن تجربة الشهيد الأول ومعركة الشهداء تركت أثراً بعيد المدى في الوعي الشيعي العالمي، إذ تحولت إلى نموذج تاريخي مبكر لارتباط الفقه بالسياسة، ورسخت فكرة دور الفقيه في إدارة شؤون المجتمع في زمن الغيبة الكبرى، كما أسهمت هذه التجربة،

١ . حسن الأمين، تاريخ جبل عامل، ص ٢١٦.

٢ . محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٩، ص ١٢٧.

٣ . جعفر السبحاني، المصدر السابق، ص ١٠٨.

بما حملته من نجاحات واخفاقات في بلورة اتجاهات أكثر نضجاً لدى الفقهاء اللاحقين، الذين سعوا إلى إعادة بناء الدور الديني والسياسي للشريعة بأساليب أكثر حذراً وتدرجاً^(١).

وبذلك، يمكن القول إن مقتل الشهيد الأول لم يكن نهاية لدور الشيعة في جبل عامل، بقدر ما كان مرحلة قاسية أعادت صياغة هذا الدور، ومهدت لاحقاً لنهضة علمية وفقهية جديدة ستظهر آثارها في الحقت اللاحقة.

الخاتمة:

شكلت أحداث جبل عامل في القرنين الرابع والخامس الهجريين مرحلة مفصلية في تاريخ الشيعي بعامة، إذ جمعت بين الأبعاد الدينية والسياسية والاجتماعية، فقد أدى الشهيد الأول دوراً محورياً في توحيد الطائفة الشيعية آنذاك، وقيامه على تطوير الفكر السياسي الإسلامي فقهياً عبر طرح "نظرية نيابة الفقيه العامة"، وإرساءه أسس الإدارة الدينية المنظمة في منطقة جبل عامل.

كما أظهرت معركة الشهداء سنة ١٣٨٣م التحديات الداخلي التي واجهت مشروع الشهيد الأول الإصلاحية، سواء من الانحرافات الدينية أو الصراعات الإقطاعية، وهو ما يعكس التداخل المعقد بين السلطة الدينية والسياسية في تلك الفترة، وبالتالي يمثل التاريخ السياسي والفكري لجبل عامل نموذجاً مهماً لفهم تطور الفكر الشيعي، وإدارته للنزاعات الاجتماعية والسياسية في سياق الدولة المملوكية والصراعات الإقليمية.

١ . حسن الأمين، المصدر السابق، ص ١٠٩.

المصادر:

١. إبراهيم الزبيق، أبو شامة مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠١٠.
٢. أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري (بن كثير)، البداية والنهاية، ج٢، ط٦، المحقق: الشيخ عبد القدر الأرنؤوط والدكتور بشار عواد، دار بن كثير، القاهرة، ٢٠٠٩.
٣. أبي محمد الحسن بن علي بن داود الحلبي، كتاب الرجال، ج٣، ط١، تحقيق: محمد باقر الملكي، مركز العلامة الحلبي، الحلة العراق، ٢٠٢٢.
٤. جعفر السبحاني، الشهيد الأول: حياته وآثاره، ط١، مؤسسة الإمام الصادق "ع"، قم، ١٤١١هـ.
٥. جعفر المهاجر، الهجرة العاملة إلى إيران في العصر الصفوي، دار الروضة، بيروت، ١٩٨٩.
٦. جودت القزويني، تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية، ط١، دار الرافدين للطباعة، بيروت، ٢٠٠٥.
٧. حسن الأمين، تاريخ جبل عامل، ط١، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣.
٨. زين الدين بن علي العاملي (الشهيد الثاني)، الدر المنثور في طبقات ربانيي جبل عامل، ط١، تحقيق: علي الأحمد، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٦هـ.
٩. الروضة البهية في شرح اللمعة
الدمشقية، ج٢، ط٢، تحقيق: محمد كلانتر، النجف العراق، ١٣٨٦هـ.
١٠. عبدالحی بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٦.
١١. فؤاد ابراهيم، الفقيه والدولة الفكر السياسي الشيعي، ط٢، دار المرتضى، بيروت، ٢٠١٢.
١٢. محسن الأمين الحسيني العاملي، أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، ط١، ج٩، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣.
١٣. خطط جبل عامل، ط١، الدار العالمية للطباعة، بيروت، ١٩٨٣.

١٤. محمد أمين نجف، علماء في رضوان الله، ط٢، انتشارات الامام الحسين، قم ايران، ٢٠٠٨.
١٥. محمد باقر الخوانساري، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ج٦، ط١، مكتبة إسماعيليان، قم، ١٣٩٠هـ.
١٦. محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ط١، دار التعارف، بيروت لبنان، ١٩٨٠.
١٧. محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ابن جبير)، رحلة ابن جبير، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٩.
١٨. محمد بن الحسن (الحر العاملي)، أمل الأمل، ط١، ق١، تحقيق: احمد الحسيني، مكتبة الاندلس، بغداد، ١٩٦٥.
١٩. محمد حسين الطبطبائي، الشيعة في الاسلام، ط١، بيت الكاتب للطباعة، بيروت لبنان، ١٩٩٩.
٢٠. محمد محسن (آقا بزرك الطهراني)، طبقات أعلام الشيعة، ج٦، ط١، المطبعة العلمية، النجف العراق، ١٩٥٤.
٢١. محمد مهدي الآصفي، مقدمة الشيخ الآصفي لكتاب اللمعة الدمشقية، ط١، تحقيق: محمد كلانتر، منشورات جامعة النجف الدينية، النجف العراق، ١٣٨٦هـ.
٢٢. ناصر خسرو، سفر نامه، ط١، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.
٢٣. يوسف بن احمد البحراني، لؤلؤة البحرين في الاجازات وتراجم رجال الحديث، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، ط١، مكتبة فخراني، المنامة البحرين، ٢٠٠٨.
٢٤. يوسف طباجة، (الشهيد الأول ومشروع القيادة الدينية السياسية في جبل عامل)، صيدا لبنان، مجلة العرفان، (العدد ١-٢)، ١/ مارس/ ١٩٩٦.